



أكدت الولايات المتحدة مجدداً الخطوط الحمر في سوريا. التأكيد يثبت جدية سياستها في هذا البلد. لم يعد هناك مجال للتشكيك. تصدى قواتها وطيرانها لقوات شعبية تابعة للنظام في دمشق قبل أيام رسالة لا لبس فيها، إلى جميع المخربين في الصراع على بلاد الشام. رسالة إلى النظام وإلى حليفه الروسي والإيراني، وإلى تركيا أيضاً. عنوانها لا يحتاج إلى اجتهاد: لا يمكن تغيير قواعد الاشتباك. ومنمنوع التعرض لـ «قوات سوريا الديمقراطية» التي تدعمها واشنطن شرق البلاد وشمالها. لم تكن العملية الأولى من نوعها. سبق أن ضربت قوات للتحالف الدولي خريف عام 2016 قوات للجيش السوري وكبدته خسائر فادحة.

لكن واشنطن اعترفت يومذاك بأن الضربة كانت من «خطأ». لكن الطائرات الأمريكية أغارت الربيع الماضي على قوات موالية للنظام السوري حاولت الاقتراب من قاعدة التنف. ثم أسقطت بعد نحو شهر طائرة للقوات النظامية عقاباً لها على قصف قوات كردية في محافظة الرقة. تمثل الضربة الأخيرة إصراراً أميركياً على حماية منطقة تشكل نحو أربعين في المئة من بلاد الشام. هذه «حصتها» التي لا يمكن دمشق أن تقترب منها. ولا يمكن طهران، مهما توعدت بتحرير كل سوريا، أن تتقدم إليها. ولا يمكن موسكو مهما أفلقتها سياسة إدارة الرئيس دونالد ترامب أن تتعرض لما تعتبره هذه الإدارة المصالح الاستراتيجية الأمريكية. ولا يمكن أنقرة أن توجه عملية «غصن الزيتون»، مهما أعلنت الصوت متوعدة بالتقدم إلى موقع الكرد في منبج وغيرها من مناطق تحت «إدارتهم الذاتية» شرق الفرات.

روسيا دانت العملية الأميركيّة الأخيرة في دير الزور. وانتقدت تحركات القوات الحكومية السورية لعدم تنسيقها عمليات الاستطلاع التي تقوم بها «القوات الشعبية» التي منيت بأكثـر من مئة قتيل. فهي تدرك جيداً بعد تجربة مؤتمر سوتشي، وبعد قيام «مجموعة الخمس» ونشاط فرنسا المتعدد في المنطقة، أنها لا تستطيع تجاهل أو تغيير آليات الصراعات الدوليـة. فهي ليست وحدها في الساحة. لا يمكنها تجاهل جميع القوى الدوليـة والإقليمية والمحليـة المتناحـرة في الميدان السوري. وعليـها احـترام المظلة الأميركيـة شمال شرقـي بلاد الشـام. أما اتهامـها واشنـطن بأنـها تـريد السيـطرة على أهم حـقول النفـط في منـطقة دير الزور فأـمر مـبالغـ فيهـ. السياسـة الجديدة لـواشنـطن فيـ سـورـيـة والمـنـطـقة عمـومـاً طـوت سيـاسـة الإـدـارـة السـابـقـة لـبارـاك أـوبـاماـ. الـولـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ حـاضـرـةـ بـقوـةـ الـآنـ فيـ بلـادـ الشـامـ، وـحـاضـرـةـ أـيـضـاـ فيـ العـراـقـ. وـيمـكـنـ القـولـ أـنـ قـوـاعـدـهـ الـعـسـكـرـيـةـ فيـ الإـقـلـيمـ كـلـهـ تـشـكـلـ طـوقـاـ مـحـكـماـ عـلـىـ الحـضـورـ الـرـوـسـيـ الـمـيـدـانـيـ الـمـسـتـجـدـ عـلـىـ السـاحـلـ السـوـرـيـ. فـهيـ مـوجـودـةـ أـيـضـاـ فيـ الـمـنـطـقةـ الـجـنـوـيـةـ الـمـاحـازـيـةـ لـحدـودـ الـأـرـدـنـ. هـذـاـ مـنـ دـونـ الـحـدـيثـ عـنـ سـيـاسـةـ حـلـيفـتهاـ إـسـرـائـيلـ الـتـيـ بـاتـ غـارـاتـهاـ شـبـهـ روـتـينـيـةـ عـلـىـ مـوـاـقـعـ لـلـنـظـامـ فيـ دـمـشـقـ وـحـلـفـائـهـ مـنـ مـيلـيشـياتـ تـرـعـاهـاـ إـيـرانـ. مـنـ هـنـاـ، أـهـمـيـةـ الـضـرـبةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ فيـ مـنـطـقـةـ دـيرـ الزـورـ. فـهـذـهـ تـشـكـلـ مـوقـعاـ اـسـتـراتـيـجـيـاـ عـلـىـ الـحـدـودـ مـعـ الـعـراـقـ. وـيمـكـنـ الـانـطـلـاقـ مـنـهـ لـاحـقاـ لـقـطـعـ الـطـرـيقـ الـتـيـ تـسـتمـيتـ طـهـرـانـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـ سـالـكـةـ إـلـىـ سـاحـلـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ الـمـتو~سـطـ.

الوجود العسكري الروسي في سوريا ليس مهدداً. لكنه بالتأكيد يواجه مرحلة جديدة من التحديات. ستجد موسكو نفسها قريباً مجبرة على ضخ مزيد من العديد والعتاد إلى هذا البلد، بعد إعلان الرئيس فلاديمير بوتين من قاعدة حميميم «النصر» على الإرهاب وبـدء سحب بعض القوات من سوريا. سيشكل هذا الوضع استنزافاً لمقدراتها وقواتها. ولا يقتصر هذا التحدـي علىـ الشـقـ العـسـكـرـيـ، بلـ يتـعدـاـ إـلـىـ الشـقـ السـيـاسـيـ. سـلـمـتـ الـدـيـبـلـوـمـاـسـيـةـ الـرـوـسـيـةـ فيـ سـوـتـشـيـ بـأنـهاـ لـاـ يـمـكـنـهاـ المـضـيـ وـحـيدـاـ فيـ رـسـمـ مـعـالـمـ التـسـوـيـةـ. فـهـنـاكـ «ـمـجمـوعـةـ الـخـمـسـةـ»ـ، وـهـنـاكـ الصـوتـ الـفـرـنـسـيـ وـالـأـوـرـوـبـيـ عـمـومـاًـ الـبـاحـثـ عنـ دـورـ وـإـنـ مـتأـخـراًـ. وـهـنـاكـ تـحـرـكـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ لـإـدانـةـ نـظـامـ الرـئـيـسـ بـشارـ الأـسـدـ بـاستـخـدـامـ أـسـلـحةـ كـيـماـوـيـةـ، وـهـذـهـ كـرـةـ نـارـ تـكـبـرـ يـوـمـيـاـ وـقـدـ تـنـفـجـرـ بـوـجـهـ دـمـشـقـ وـحـلـيفـتهاـ عـاجـلاـ لـآـجـلاـ. وـأـخـطـرـ مـنـ هـذـهـ الـمـسـتـجـدـاتـ، تـواـجـهـ رـوـسـيـاـ تـهـدـيـداـ لـانـفـرـاطـ عـقـدـ تـفـاهـمـهاـ مـعـ كـلـ مـنـ إـيـرانـ وـتـرـكـيـاـ، خـصـوصـاـ بـعـدـ التـبـاـيـنـ الـكـبـيرـ بـيـنـ شـرـيكـيـهـاـ فيـ آـسـتـانـةـ. يـمـكـنـهاـ أـنـ تـوـهـمـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـالـدـوـلـ الـتـيـ تـصـرـ عـلـىـ دـورـ الـمـنـظـمةـ الـدـوـلـيـةـ فيـ إـيـجادـ التـسـوـيـةـ سـيـاسـيـةـ، بـأنـهاـ تـسـاـهـمـ فيـ تـعـبـيـدـ الـطـرـيقـ إـلـىـ ذـلـكـ عـبـرـ «ـمـؤـتـمـرـ الـحـوارـ»ـ وـغـيـرـهـ. لـكـنـهاـ تـعـلـمـ جـيدـاـ أـنـ الرـئـيـسـ الـأـسـدـ وـالـمـجـمـوعـةـ الـمـحـيـطـةـ لـاـ يـعـنيـهاـ أـيـ حلـ. وـهـوـ يـلـقـيـ دـعـماـ وـاـضـحاـ مـنـهـاـ وـمـنـ إـيـرانـ.

لا يعني ذلك أن الكرملين لا يتمسك بقوة القاعدتين في حميميم وطرطوس بـعـدـماـ سـوقـ أـنـهـماـ خـطـ دـفـاعـ مـتـقدمـ عنـ رـوـسـياـ وـدـورـهاـ الدـوـلـيـ المـتصـاعـدـ. وأـعـلـنتـ وزـارـةـ الدـفـاعـ الـرـوـسـيـةـ قـبـلـ أـيـامـ أـنـهاـ تـعـمـلـ عـلـىـ تـعـزـيزـ قـوـاعـدـ اـنـتـشـارـ قـوـاتـهاـ فيـ سـورـيـةـ، بـعـدـ إـسـقـاطـ إـحـدىـ طـائـرـاتـ الـحـربـيـةـ وـبـعـدـ تـعـرـضـ قـاعـدـيـهـاـ لـهـجـمـاتـ صـارـوـخـيـةـ وـهـجـمـاتـ بـطـائـرـاتـ «ـدـروـنـ»ـ. وـلـاـ تـخـفـيـ مـوسـكـوـ مـعـارـضـتـهاـ الـخـلـطـةـ الـإـلـصـالـحـيـةـ الـتـيـ تـعـمـلـ عـلـيـهاـ الدـوـلـ الـخـمـسـ (ـأـمـيـرـكاـ وـفـرـنـسـاـ وـبـرـيـطـانـيـاـ وـالـسـعـوـدـيـةـ وـالـإـمـارـاتـ)، لـأـنـهـاـ تـخـشـيـ أـنـ يـنـتـهـيـ تـقـلـيـصـ صـلـاحـيـاتـ الرـئـيـسـ وـتـغـيـيرـ تـرـكـيـبـ الـحـكـومـةـ وـمـجـلـسـ النـوـابـ إـلـىـ إـعادـةـ الـنـظـرـ فيـ الـاـتـفـاقـ الـذـيـ مـنـحـتـ بـمـوجـهـ دـمـشـقـ الـقـاعـدـتـيـنـ شـرـعـيـةـ الـبـقاءـ لـخـمـسـيـنـ سـنةـ قـابـلـةـ لـلـتـجـديـدـ كـلـ 25ـ سـنةـ. صـحـيـحـ أـنـهـاـ «ـأـهـدـتـ»ـ مـرـغـمـةـ إـلـىـ الـمـبـعـوثـ الـدـوـلـيـ سـتـيفـانـ دـيـ مـيـسـتـورـاـ الـعـمـلـ مـعـ «ـلـجـنـةـ الـدـسـتـورـ»ـ عـلـىـ إـعـدـادـ دـسـتـورـ بـإـشـرافـ أـمـمـيـ، لـكـنـ الصـحـيـحـ أـيـضـاـ أـنـ لـاـ ضـمـانـ سـيـرـغـمـ الـنـظـامـ فيـ الـجـوـلـاتـ الـمـقـبـلـةـ عـلـىـ تـقـدـيمـ التـنـازـلـاتـ الـمـطلـوـبـةـ، مـاـ دـامـ أـنـهـ «ـحـرـفـ»ـ الـبـيـانـ الـنـهـائـيـ لـمـؤـتـمـرـ الـحـوارـ، وـقـدـمـهـ وـطـهـرـانـ

روسيا تدرك جيداً فحوى الرسالة الأميركيّة الأخيرة من دير الزور، تدرك قواعد «الحرب الباردة». ومثلها أيضاً دمشق وطهران.

صحيح أن إيران دانت الضربة الأميركيّة الأخيرة، وأن الرئيس حسن روحاني هاجم الوجود الأميركي في بلاد الشام، متهمًا واشنطن بالسعى إلى تقسيم هذا البلد. لكن الصحيح أيضاً أنه واقعي وبرغماتي أمام «العواصف» التي تهب عليه من الداخل والخارج. ومثلاً دعا إلى سماع صوت شعبه الناقم، أبدى استعداداً للحوار من أجل حل مشكلات المنطقة، «خصوصاً مع الدول الإقليمية»، ومع «بلدان ليست من المنطقة»، في إشارة إلى الولايات المتحدة. ورأى أن حسن تنفيذ الاتفاق النووي يفتح الطريق للبحث في ما تثيره إدارة ترامب وحكومات أوروبية في شأن دور بلاده في المنطقة وقضايا أخرى. يبقى أن يدرك الرئيس رجب طيب أردوغان الذي تستقبل بلاده هذا الأسبوع وزير الخارجية الأميركي ريكس تيلرسون ومستشار الأمن القومي هربرت ماكماستر، فحوى الرسائل الأميركيّة. وأن يخفض من سقف تهدياته للكرد والنظر في أبعاد خصومته المتمادية مع واشنطن. فالجميع يعرف جيداً أن توغل قواته في سوريا يظل رهن جملة من التفاهمات الضرورية، أو رهن أكثر من ضوء أخضر. فهو إن لم يعر اهتماماً كبيراً لاعتراض إيران التي ربما كانت ترغب في مغازلة الكرد، لا يمكنه تجاهل موقف أميركا وروسيا. فالأخيرة أمهلته ولا تزال تمهله من أجل نشر قواته في منطقة إدلب وإناء وجود الفصائل المتشددة وعلى رأسها «جبهة النصرة»، وقد لا تسمح له بتوسيع حربه على الكرد.

مهمة المسؤولين الأميركيين في أنقرة يجب ألا تكون صعبة. هناك مصلحة مشتركة في التهدئة. نجاح السياسة الأميركيّة في سورية تفيد منه تركيا أيضاً. لذلك، إن مواصلة قوات أردوغان حملتها على الكرد في مناطق سيطرتهم لا يخدم هذه المصلحة مستقبلاً. لا حكمة في دفع «قوات سورية الديمقراطية» و«حزب الاتحاد الديمقراطي» إلى تجديد الصلات بالنظام السوري. لن يتزدّد الحزب في تسليم موقعه إلى قوات النظام وحليفه الإيراني والروسي إذا تعاظم الضغط العسكري على هذه «القوات». ويعني ذلك ببساطة تعزيز هيمنة الجمهورية الإسلامية في بلاد الشام على حساب مصالح تركيا وفضائلها الأمني. لذلك، من مصلحة واشنطن وأنقرة إيجاد تفاهم يقضي بوقف هذه الحملة على عفرين عند حدود معينة. ومن مسؤولية تيلرسون وماكماستر طمانة الحليف التركي التقليدي والعضو الأساسي في حلف شمال الأطلسي إلى حرص بلادهما على عدم السماح بهز وحدة الأراضي السورية، وعدم السماح للكرد بإعلان كيان مستقل يشكل قاعدة لحزب العمال الكردستاني. وإذا كان لسياسة أميركا هدف رئيسي هو مواجهة تمدد إيران انطلاقاً من سورية، فإن تحقيق هذا الهدف يخدم المصالح الاستراتيجية لتركيا التي وجدت نفسها قبل سنتين مرغمة على الانجرار نحو موسكو وطهران بعيداً من علاقاتها التاريخية مع دول «الناتو». وليس من مصلحتها اليوم إعادة تأهيل النظام وتحويل بلاد الشام قاعدة للثنائي الإيراني والروسي. هدفها كما هو هدف حلفائها التقليديين إزاحة الرئيس الأسد والحفاظ على مصالحهم في بلاد الشام فلا تسقط كلها بيد إيران وروسيا خصميها التاريخيين.

المصادر:

الحياة